وطنيـــة المتنبي

للأستاذ على النجدى ناصف

مفتش المعارف بالاسكندرية

كان مولد المتنبي بالكوفة ، فى حى من أحيائها يسمى كندة . وقد نسبه الناس إلى المدينة والحى معا ، فقالوا : المتنبي الكوفى الكندى . وبقى المتنبي بالكوفة حتى نما واشتد ، ثم دعته دواعى العيش إلى الضرب فى الأرض فرحل عنها ، يطوف فى الآفاق ، ويتنقل من بلد إلى بلد ، يعرض شعره على السراة وأصحاب الجاه والسلطان ، طلبا للرزق ، أو مصانعة فى سبيل الأبهة والملك . أما أهله فقد بقوا بالكوفة ، لم يتبعه منهم سوى ابنه محسد ، رحل معه إلى فارس وقتلا معا فى العودة منها .

فالمتنبى كان موصول السبب بالكوفة على الرغم من هجرته منها : كانت لأهله مستقرا ومقاما كما كانت له منشأ ومربى . فهل تراه وعلاقته بها على مارأيت . قد أدى حقها عليه ، براً بها ووفاء لها ؟ هل تراه أشاد بمزاياها ، أوفتن بجمالها ، أو حن إلى عهده فيها ؟ أم هل تراه حملنا على الاهتمام بها والتفكير فيها ، والعطف عليها ، كما فعل بشعب بوان[1] ودشت الأرزن[2] ؟ إننا إذا رجعنا إلى الديوان ، نتقصى قوله فى الكوفة ، ونتنور عاطفة

---

(١) موضع بفارس ، كثير الأشجار والمياه . وكان يعد من جنان الدنيا الأربع ، وصفه المتنبي فى فى القصيدة التى مطلعها : مغانى الشعب طيبا فى المغانى بمنزلة الربيـــع من الزمان

(٢) موضع حسن على نحو ٣٠ ميلا من شيراز ، تحف به الجبال ، وفيه غابات ومياه ومروج وصفه المتنبي فى الأرجوزة التى مطلعها : ماأجدر الأيام والليالى بأن تقول ماله ومالى

الوطنية عنده ، ونسبر غورها من نفسه . تخلص لنا ظاهرتان : —

الأولى : أنه لم يتحدث عن وطنه إلا عرضا ، وأنه إذ يفعل كان يقتضب الحديث اقتضابا فيقصره على القدر الذى يقتضيه المقام ولا زيادة . وهذه هى أقواله فى الوطنية :

قال من قصيدة نظمها فى صباه :

در در الصبا ، أأيام تجرى رذيولى بدار أثلة[1] ، عودى

وقال من قصيدة يمدح بها سيف الدولة ، ويذكر إيقاعه ببعض قبائل العرب .

تذكرت مابين العذيب وبارق[2] مجرعو الينا ، ومجرى السوابق
وصحبة قوم يذبحون قنيصهم بفضلات ماقد كسروا فى المفارق
وليلا توسدنا الثوية[3] تحته كأن ثراها عنبر فى المرافق
بلاد إذا زار الحسان بغيرها حصى تربها ثقبنه للمخانق
سقتنى بها القطر بلى مليحة على كاذب من وعدها ضوء صادق

وقال من قصيدة فى مدح على بن إبراهيم التنوخى:

أمنسى الكناس ، وحضرموتا ووالدتى ، وكندة والسبيعا[4]

والظاهرة الأخرى أنه يبدو بعض الأحيان فاتر الوطنية ، بل خامدها تراه لايبقى عليها ، ولا يستمسك بفكرتها . ويتمثل ذلك إما فى الفخر بكثرة التنقل من بلد إلى بلد كقوله :

بأى بلاد لم أجر ذوائبى وأى مكان لم تطأه ركائبى

وإما فى إعلان الزهادة فى الوطن . والرغبة عن المقام فيه إذا جفاه صديق من أهله ، أو نبت رحابه به ، أولم يطب له القرار فيه كقوله :

---

(١) موضع بظاهر الكوفة (٢) موضعان بظاهر الكوفة (٣) الكناس وحضرموت محلتان بالكوفة وكندة محلة غربيها ، والسبيع سوق بها ومحلة

إذا صديق نكرت جانبه لم تعينى فى فراقه الحيل
فى سعة الخافقين مضطرب وفى بلاد من أختها بدل

وقوله :

وما بلد الإنسان غير الموافق ولا أهله الأدنون غير الأصادق

وقوله :

وكل امرىء يولى الجميل محبب وكل مكان ينبت العز طيب

وإما فى الجهر بالاستغناء عن الوطن ، وعدم التعلق به ، أو التفكير فى العودة إليه ، كقوله :

وإنى لنجم تهتدى بى صحبتى إذا حال من دون النجوم سحاب
غنى عن الأوطان لايستفزنى إلى بلد سافرت عنه إياب
وعن ذملان العيش إن سامحت به وإلا ففى أكوارهن عقاب

لهذا وذاك اتهم المتنبي بعقوق الوطن ، واضطراب فكرة الوطنية (١) وهو فى رأيى برىء ، من التهمتين جميعا ، فلم يكن فيما رويت من شعره فى بعض أحياء الكوفة والمواضع القريبة منها — وطنيا يصدر عن عاطفة واجدة، وإحساس متأثر . ولم يكن فيما رويت من شعره فى التحلل من فكرة الوطنية وعدم التقيد بدواعيها — أفاقا يصدر عن عقيدة راسخة وإيمان بما يقول . ولكنه كان فى هذه وتلك وفى مواقف أخرى كثيرة — صاحب فن ليس غير ، يخلص لفنه الإخلاص كله ، ويبذل قصاراه لمرضاته والوفاء له ، ثم لا يعنيه بعد ذلك أين يقع قوله من الوطنية ، ولا كيف يكون من آرائه ونظرياته فيها

لقد كان المتنبي مشغول البال ، جم المتاعب ، كثير الهموم . كان صاحب مطامع جليلة ، هام بها ، ووهب جميع مواهبه لها ، ولم يأل جهدا فى إدراكها ، حتى ما كان يعمل إلا لها ، ولا يتحدث إلا متأثراً بها من قريب أو من بعيد

(١) المتنبي للأستاذ شفيق جبرى ص : ٦٧ ، ٩٠

لقد سعى إلى الملك أهون مايكون شأناوأضعف مايكون ناصراً ، وأقل مايكون عدداً ، فأخفق فى مسعاه إخفاقاسريعاً ذريعاً ،وألقى فى غيابة السجن، فلبث فيه حتى كاد يتلف ثم خرج منه عائلا مجهوداً وخاملا مغموراً: لايحسه أحد،ولا يباليه أحد، فما زال يدأب ويلح فى الدأب حتى نفقت بضاعته ، وطار صيته ، وقدره الناس حق قدره ، فعاودته فكرة الملك رويداً ، وبلغت غايتها،من القوة والوضوح فى أثناءمقامه فى مصر،فحاول ماوسعته الحيلة ، وصانع ماأمكنته المصانعة،لعله يقضى منها وطراً ، فأخفق كذلك ، وأصبح امرأ محذوراً : لايؤمن جانبه ولا يصح إغفال أمره والسكوت عنه ، فضربت عليه الرقابة والتجسس ، وحدت حريته، وهدد فى أمنه وعافيته ، فلم يجد ملتحداً يعوذ به إلا الفرار ، فركبه على خطر ومغامرة ، ولم يبلغ طيته إلا بشق الأنفس . ثم إنه كان رجلا محسوداً ، طالما دبرت له المكايد ، ونصبت الشراك ، ودست الدسائس ، لم يسلم منها أينما توجه، وحيثما أقام . وكان مغرما بالمال يحبه حباً جماً ، ولا يألوه كدحاً وطلبا ، كأنما أراد أن يقيم به دولة من الأبهة والجاه ، بعد أن أعيته دولة الصولة والسلطان. وهيهات ثم هيهات مع هذه المشاغل الثقال أن يفيق الإنسان لوطنه ، يحن إليه ويتغنى بمحاسنه كما يتغنى الخلى الفارغ الفؤاد .

هو إذاً صاحب فن كما أسلفنا ، ينظر إلى القصيدة نظره إلى الموضوع المستقل أو الوحدة الفنية ، لاصلة لها بغيرها ، ولا تشابه بين أصولها وأصول غيرها إلا بمقدار ما يكون بين موضوعيهما من أسباب الاتصال والمشابهة . فمن حق القصيدة عليه أن تستوفى نصيبها من أسباب القوة والتأثير ، وإن أصيب هو فى هذه السبيل بتخالف الآراء ، والاضطراب بين المذاهب والنظريات ، صنيع الممثل اللبق ، يولع بفنه ، ويبذل له كل مايقتضيه من أسباب الإحسان فهو لذلك يأخذ نفسه فى جد وصرامة بالاندماج فى مواقفه ، ويلبس لكل موقف لبوسه الذى يلائمه ، ويوارى من شخصيته ووجداناته كل مايجافيه

أو يشذ عنه ، فبينا تراه فى موقفه طاغية متجبراً ، يدعو إلى الخسف ويمكن للاستبداد ، تراه فى آخر عدلا متواضعاً ، يدعو إلى السلم ، وينادى بالمساواة والشورى،ولقد تراه يضحك ويعربد وإن يكاد قلبه لينفطرهما وكمداً ، أوتراه يبكى ويتوجع وإن يكاد قلبه ليطير بهجة وسروراً .

والآن لعلك تريد مثلا من التناقض الذى ساقه الفن إليه ، وأوقعه فيه ، فلم ينكره ، ولم يحاول التخلص منه . دونك إذا موقفه من العرب مثلا أول . فالمتنبى كما لايخفى . عربى صميم ، أبوه من جعفى بن سعد العشيرة ، وجدته من همدان . وهو إذ يتجرد من تمثيله الشعرى ، ويخلو إلى نفسه يتحدث إليها وتتحدث إليه . يقف من العرب الموقف الطبيعى ، فينتسب إليها ، ويفخر بها . قال :

لى منصب العرب البيض المصاليت ومنطق صيغ من در وياقوت
وهمة صار دون العرش أسفلها وصار ماتحته فى لجة الحوت (١)

أما حين يمدح بشعره ، ويزجيه للتجارة والكسب ، فلا يعنيه أن يكون رأيه فى العرب مايكون ، إنما يدع ذلك لمطالب الموقف ، ودواعى الفن كمايراه صاحب الفن المحترف ، فهو دائما من ورائها ، يذهب مذاهبها وينزل على أحكامها فى غير تحرج ولا مبالاة .

استمع له يرثى للعرب ، ويتوجع لشقوتها ، أن ذهب عزها ودال سلطانها واستبدت بها الأعاجم ، يسومونها الخسف والمهانة ، على جفوتهم ، وسوء منبتهم ، وأنهم لا أدب عندهم ، ولا أحساب لهم ولا عهود :

أحق عاف بدمعك الهمم أحدث شيئاً عهداً بها القدم
وإنما الناس بالملوك ، وما يفلح عرب ملوكها عجم
لاأدب عندهم ولا حسب ولاعهود لهم ولا ذمم

(١) زيادات ديوان المتنبى ، ص ١٤٠

فى كل أرض وطئتها أمم ترعى بعبد كأنهم غنم
يستخشن الخز حين يلبسه وكان يبرى بظفره القلم

إنه هنا كما سمعت . شاعر العرب ، يحس إحساسها ، ويترجم عن آلامها ، ويثير فيها الحمية والنخوة ، لايخاف بخسا ، ولايتوجس حرمانا ، فطبيعة الموقف تقتضى ذلك وتدفع إليه ، لأن الممدوح فى القصيدة عربى ، فلا عليه أن يكون هو أيضاً عربياً وإن لم يكنه .

ثم استمع إليه يلمز العرب ، ويزرى بعيشة البداوة ، ويؤثر العجم على العرب ، ويمتدح عيشة الحضر :

أرأيت همة ناقتى فى ناقة نقلت يدا سرحا وخفا مجمراً
تركت دخان الرمث فى أوطانها طلبا لقوم يوقدون العنبرا
وتكرمت ركباتها عن مبرك تقعان فيه وليس مسكا أزفرا

إلى أن قال :

من مبلغ الأعراب أنى بعدها شاهدت رسطاليس والإسكندرا
ومللت نحر عشارها فأضافنى من ينحر البدر النضار لمن قرى

أتدرى سر هذا التحول من النقيض إلى نقيضه ؟ إنه الممدوح فهو هنا ابن العميد ، وهو من سلالة الأعاجم ، فهل عليه أن يكون هو كذلك أعجميا وإن لم يكنه ؟

ثم دونك مثلا آخر من مناقضاته الفنية ، إذا صح هذا التعبير . قال يتحدث عن بنى كليب ، وقد أوقع بهم سيف الدولة :

ولو غير الأمير غزا كلابا ثناه عن شمروسهم ضباب
ولاقى دون ثأيهم طعانا يلاقى عنده الذئب الغراب
وخيلا تغتذى ريح الموامى ويكفيها من الماء السراب

فهو كما ترى — يذكرهم بالخير ، ويصفهم بالشجاعة والمنعة ووفرة العتاد .

أتدرى لماذا ؟ لأن الممدوح عربى ، وبينه وبين بنى كلاب صلة من نسب ، فمدحهم بما مدحهم به — يعد كذلك مدحا له .

واسمع ما يقول عن بنى كلاب أنفسهم فى مقام غير المقام :

أرادت كلاب أن تقوم بدولة لمن تركت رعى الشويهات والإبل
أبى ربها أن يترك الوحش وحدها وأن يؤمن الضب الخبيث من الأكل
وقاد لها دلير كل طمرة تنيف بخديها سحوق من النخل
وكل جواد تلطم الأرض كفه بأغنى عن النعل الحديد من النعل
فولت تريغ الغيث والغيث خلفت وتطلب ما قد كان فى اليد بالرجل
تحاذر هزل المال وهى ذليلة وأشهد أن الذل شر من الهزل

أتدرى لم هذا التحول أيضا ؟ لأن الممدوح هنا دلير بن لشكروز ، وهو ديلمى لا عربى ، خرج لقتال الخارجى الذى نجم بالكوفة من بنى كلاب . فالداعية الفنية فى مدح موقف هذا الديلمى من بنى كلاب غير الداعية الفنية فى مدح موقف سيف الدولة منهم ، وبين الموقفين من الاختلاف قدر ما بين الرجلين من الاختلاف كذلك .

والآن ، هلم إلى الديوان فى ضوء الحقائق التى أسلفنا ، نرجع البصر فى أبياته الوطنية ، ونتعرف الظروف التى تكنفتها ، والدواعى التى دعت إليها . قال:

در در الصبا أأيام تجرى ذيولى بدار أثلة عودى

وهذا البيت من مقطعة فى الغزل ، اختار الشاعر موضوعا لها حكاية العاشق الأشيب ، يتشوق ماضيه ويحن اليه ، ويتوجع من حاضره ويضيق به . وأبو الطيب كما لا يخفى . لم يكن شاعرا غزلا ، ولكن متغزلا مقلدا . ولعله فى غزله هنا أبين ما يكون صنعة وتكلفا ، فالقصيدة فيما يقول العكبرى ، وفيما يبدو عليها من شعره فى عهد الصبا . وها هو ذا برغم حداثته يلبس لبوس الشيخوخة المتهدمة ، ويتكلف عواطف الشيخ العاشق ووجداناته . ألا تراه كيف يدعى

أن قد أصبح مقسم النفس بين السخط والرضا ، والنفور والحنين : يسخط على حاضره العابس المتجهم وينفر منه بما فيه من ضعف الشيخوخة وإعراض الغواني ، ويرضى عن ماضيه المشرق البسام ويحن اليه بما كان فيه من لهو ومتاع. ولكن كيف يستقيم له التمثيل ، وتتساوق معه مشاهد الموقف في حبكة واتساق إذا هو لم يعين موضع لهوه ومرحه ؟ إذا لابد من موضع يذكره . وما يمنع أن يكون ذلك الموضع هو دار أثلة ؟ أليست مكانا بظاهر الكوفة ، مسقط رأسه ومرتع صباه ؟ ليكن ذلك .وقال :

أمنسى الكناس ، وحضر موتا ووالدتى ، وكندة ، والسبيعا

والمقام فى هذه القصيدة مقام مدح واستمناح ، فالمعول فيه على التوريط وشدة التأثير ، لعل الممدوح يثيبه بجائزة سنية ؛ إذ كان الشاعر يومئذ مايزال عائلا مجهودا . وليس أحق بمحبة الإنسان فيما يعرف الناس من وطنه بين البلاد ، ومن أمه بين الأهل والأقارب . إذا ، فمن الخير له ، ومن أسباب التأثير فى ممدوحه أن يزعم له أن قد أنساه أمه ووطنه ، بحسن ملاطفته ،وجميل إيناسه ووفرة عطاياه.وقال :

تذكرت مابين العذيب وبارق مجر عوالينا ، ومجرى السوابق
وصحبة قوم يذبحون قنيصهم بفضلات ماقد كسروا فى المفارق
وليلا توسدنا الثوية تحته كأن ثراها عنبر فى المرافق
بلاد إذا زار الخسان بغيرها ترى تربها ثقبنة للمخانق

والشأن فى هذه الأبيات للمفاخرة وقوة التأثير معا .ذلك أن سيف الدولة حارب بعض قبائل العرب ، فأوقع بهم وشتت جمعهم ، فأراد المتنبي أن يخلد هذا النصر كما خلد غيره . ومن خصائص المتنبي فى بعض مدائحه أن يطاول

ممدوحيه ، ويدعى مشاركتهم فى بعض أحوالهم (١) ، وأن يعمل على أن يظل أثيرا عندهم ، ومقربا إليهم بالمخادعة والدهان ، وإعلان الانقطاع إليهم ، وبيع كل عزيز بهم (٢) فإذا كان سيف الدولة فى حربه مع قبائل العرب يستحق الحمد على بسالته ورباطة جأشه وشدة احتماله المكاره — فماذا يمنع المتنبي أن يتطاول إلى مفاخرته ، وينسب إلى نفسه مثل الذى يصف من مناقبه ؟ أليس هو المتنبي الشاعر الطموح الذى يقول لكافور :

وفؤادى من الملوك ، وان كا ن لسانى يرى من الشعراء

فليتقمص إذا شخصية البطل المظفر ، تشغله مفاخره الحاضرة عن مفاخره الماضية حتى يكاد لا يذكر منها شيئاً إلا فى المناسبات . وهاهو ذا إيقاع سيف الدولة بقبائل العرب قد ذكره ، والشيء بالشيء يذكر ـ عهدا له بالعذيب وبارق ،

---

(١) قال يخاطب كافورا ، وقد بنى دارا ، ورغب إليه أن يذكرها فى شعره :

إنما التهنئات للأكفاء ولمن يدنى من البعداء
وأنا منك لا يهنىء عضو بالمسرات سائر الاعضاء

وقال يعزى سيف الدولة عن عبد له يسمى يمانك :

لا يحزن الله الأمير فانى لاخذ من حالاته بنصيب

وقال يعاتبه :

وبيننا لو رعيتم ذاك معرفة إن المعارف فى أهل النهى ذمم

وقال يتحدث عن أبى العشائر :

شاعر المجد خدنه شاعر اللف ظ ، كلانا رب المعانى الدقاق

(٢) قال فى مدح كافور الاخشيدى :

أحن إلى أهلى ، وأهوى لقاءهم وأين من المشتاق عنقاء مغرب
فان لم يكن إلا أبو المسك أوهم فانك أحلى فى فؤادى وأعذب

وقال يمدح سيف الدولة :

تركت السرى خلفى لمن قل ماله وأنعلت أفراسى بنعماك عسجدا
وقيدت نفسى فى هواك محبة ومن وجد الاحسان قيدا تقيدا

قضاه فى صحبة قوم أنجاد أولى حمية وبأس ، وأولى ذخيرة وعتاد ، غاراتهم متعاقبة ، ومطاردتهم الأعداء غير منقطعة ، يعملون السيوف فى رءوسهم بلا رفق ولا مرحمة ، فيتحطم منها مايتحطم ، ويبقى من أصولها مايبقى ، فيتخذون من بقاياها مدى يذبحون بها القنائص والصيد . وربما افترشوا أرض الثوية إذا جن الليل : ينامون عليها هانئين ، طيبة نفوسهم ، قريرة أعينهم ، بما يفوح من شذا تربها العبق المعطار ، فإذا ماوصل أبو الطيب من هذه المفاخرة إلى الغاية التى أراد ، وأدخل فى نفسه الرضا من هذا الباب انقلب على عقبه كالعهد به خداعا مداهنا ، يريد أن يستأثر بسيف الدولة ويبلغ من نفسه غاية التأثير ، وأقبل يدعو إلى الهجرة من الوطن إذانبا ، وإلى مفارقة الأقارب إذا تغيروا وفسدت بينهم علائق الألفة والتناصر ليوهم سيف الدولة أنه أحب إليه من قومه ، وأن جواره أكرم عليه من وطنه ، مع مافيه من متعة وجمال ، ومايصله به من مفاخر وذكريات غوال ، قال :

ومابلد الإنسان غير المرافق ولاأهله الأدنون غير الأصادق

* * *

فلم تكن هناك إذا آراء فى الوطنية ارتآها الشاعر ، وعرضها فى شعره ، فإذا هى متضاربة ينقض بعضها بعضا ، وإنما كانت هناك موضوعات مختلفة ، اقتضى المقام فى كل منها ذكر الوطن بأسلوب خاص ، فلبى الشاعر داعى الفن ، غير متأثر إلا به ولا ناظر إلا إليه .

على أن المتنبى كان يدون سوانح أفكاره وخواطره العابرة ، كما تتمثل لوقتها فى ذهنه ووجدانه ، لا كما تشاكل أراءه ونظرياته السابقة ، مشاكلة النظير لنظيره ، أو الفرع لأصله ، فكان كالمرقب الذى يصور كل ما يمر به ، أو يتصدى له من أجرام السماء على الأوضاع التى بصادفها عليه حين التصوير ،

لا كما يتطلب التشابه بين أوضاعها السابقة واللاحقة وهذا يوافق طريقته فى صياغة الأساليب، إذ كان فيما يقال [1] . يرسلها إرسالا على الصور التى تتهيأ له ؛ غير عابىء بما قد يصيبها من التعقيد أو ضعف التأليف .

على النجدى ناصف
مفتش المعارف بالإسكندرية

(١) التبيان : ١ : ٣٣٧ ، والصبح المنبى ٠ ١ ٠ ١٨٤